المشرق

فتوح الصين

لرائد العلم وبطل الدين

نظر تاريخي للاب لويس شيخو اليسوعي

وافقت سنتنا الحاضرة تذكار المئة الثالثة لوفاة احد ابطال الدين ورواد التمدُّن الذي فتح بلاد الصين للامم الغربية فعرَّف اهل اوروبة بممالك اعظم شأناً وارقى مدنيَّةً واكثر عدداً من اميركة وسكَّانها. نعني به المرسل الايطاليّ الاب ماتيو (متى) ريتشي سليل الرهبانية اليسوعية الذي اراد اهل وطنه ان يقيموا لذكره في هذا العام محفلاً حافلاً عدَّدوا فيه مناقبهُ واطروا محامدهُ وذكروا ما تكلفهُ من المشقات قبل حصولهِ على اقصى امانيهِ من فتح ابواب الصين الموصدة في وجه الاجانب عموماً والاوربيين خصوصاً. وها نحن في هذه المقالة نروي شيئاً من مآثرهِ ونبيِّن كيف اتَّصل بملوكه الى عاصمة مملكة السماء وما ادَّاهُ ثمَّ للدين من الخدم المشكورة. ولا بُدَّ قبل تفصيل الخبر من القدمات ليظهر منها فضل صاحب الترجمة

١ الصين قبل دخول اليسوعيين اليها

كتبنا في المشرق (٣: ٧١٣ و ٨١٥) مقالتين في تعريف الصين واهلها وخلاصة تاريخها ووصف اديانها صدَّرناهما بخارطة مأونة فنحيل القرَّاء الى ما سبق لادراك ما سيأتي

انَّ الصين لموقعها في اقاصي الشرق بقيت قروناً عديدة كلغز العالم القديم فنشأت هناك دول كريمة وجرت حوادث عظيمة ما كان يبلغ من اصداء انبائها الَّا رنَّات

خفيفة ضعيفة حتى آذان الدُّول الكبرى التي بسطت سيطرتها من اواسط آسيـة الى غربيّها حتى نواحي اوربّة

وكان الصينيّون في بلادهم الواسعة الارجاء يجدون مـا يفي بحاجاتهم لا يثنون تعدّي تخومهم لتوسيع نطاق ممالكهم ولمّا كانوا يفرضون كنـانة المجهود ليصرفوا عنهم مطامع الامم الاجنبية التي كانت تبلغهم اليهم اخبار فتوحاتهم. وكأنّ الله كان جعل للصين حصنًا طبيعيًا يردُّ عنها غارات المعادين فصلها عن العـالم القديم شرقًا وجنوبًا ببحار زاخرة لا يخوض اعبابها غير الذين باعوا نفوسهم ورخيصةً وحصّنها شمالًا وغربًا بفاوز مجدبة وصحاري محرقة وجبال شاهقة لا يكاد يعرفهـا سوى عشائر قليلة من الشذّاذ والمهج اللهمّ الّا قبائل التتر واجيال المغول الذين كانوا في جوارها فناجزوها القتال واذاقوها الأمرّين

امّا الامم البعيدة فغاية ما كانت تعرفهُ من امر الصين بعضُ مرافقها وأعراضها التجاريّة ولاسيما الخزّ الذي كانت تنقلهُ اليها القوافل بعـد الاسفار الطويلة. وكذلك استفاد اهل الغرب شيئًا عن احوال الصين ممن دخلها من دُعاة الدين النصراني في القرون الاولى للمسيح (راجع المشرق ٣: ٨٤٣) وخصوصًا في القرن السابع على ايدي بعض النـاطرة الذين انشأوا في الصين كنائس تقلّبت احوالها مدّة نحو ٦٠٠ سنة ثم بهمّة المرسلين الكاثوليك من رهبان القديسين فرنسيس ودومنيك في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وزادنا علمًا بالصين اهل الاسفار من عرب كالتاجر سليمان في القرن التاسع وابن بطوطة في القرن الرابع عشر ومن سريان كرَبان صوما في القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر ومن فرنج كمارقو باولو في الوقت عينهِ . فتجد في رحلهم التي نُشرت بالطبع فوائد جمّة خصّنا بعضها في مقالتينا السابق ذكرهما

وممّن سهّلوا المواصلات بين اقاصي الشرق والبلاد الغربية سلالة المغول المعروفـة باسم «يوان» فانّ التتر والمغول منذ النصف الاوّل من القرن الثاني عشر كانوا يطمحون بنظرهم الى ممالك الصين ليستولوا عليها فلم يزالوا يزاحمون ملوكها ويضيفون الى دولهم اقسامًا من ولاياتها حتى فتحها قوبلاي خان حفيد جنكزخان وضبط زمام ملكها سنة ١٢٨٠ وجعل عاصمتهُ مدينـة خان بالق واسمها بالصينيّة پاكين اي قصر الشمال. وكان قوبلاي وخلفاؤهُ يكرمون النصارى ويطلقون لدعاتهـا الحرّيّة لنشر دينهم .

فامتدَّت النسطوريَّة في عدَّة مدن وكان لاصحابها كنائس وصفها الرحَّالة ماركو باولو . وكذلك نالت الكثلكة بفضل هذه السلالة المغوليَّة سهماً فائزاً فانشأ الرهبان الفرنسيسيُّون والدومنيكان رسالات مختلفة دعوا فيها اهل الصين الى ايمان المسيح ونما عددهم حتى انشأ الاحبار الرومانيون كرسيَّين لمسقفيَّين في پاكين ثم في زيتون من اعمال ولاية فوكيان . واتت تلك الرسالات باثمارها اليانعة الى ان عاد الملوك الصينيُّون الوطنيُّون فاسترجعوا ملك اجدادهم وصار الامر في ايدي السلالة المدعوَّة « منغ » فملكت من السنة ١٣٦٨ الى ١٦١٦ . وكان اهلها يتشدَّدون على الاجانب ويبذلون طاقة جهدهم في نفيهم والتضييق عليهم حتى لم يبق من النصرانيَّة غير الآثار القليلة

وفي عهد هذه السلالة اتَّخذ الصينيُّون كل الوسائل ليحصِّنوا موانئهم في وجه الغربيين حتى انقطعت عن اهل اوربَّة اخبارهم واضحوا نسياً منسيًّا كاميركة قبل اكتشاف كرستوف كولب الَّا ان التجار البرتغاليين بعد الجهاد الطويل امكنهم ان يحصلوا على قطعة من الارض في مدينة ماكاو الساحلية كانوا يتاجرون فيها مع تجار الصين على شروط حرجة لا تسمح لهم بمخالطة اهل البلاد وبالخروج عن دائرتهم الضيقة

٢ راند العالم

تلك كانت حالة الصين اذ قدم الى اليابان ذلك الرسول العظيم الذي اغنى كنيسة المسيح بعدد عديد من المؤمنين عزَّاها عمَّا فقدتهُ في اوربَّة بمساعي البدع البروتستانتيَّة زيد به القديس فرنسيس كسافاريوس . فبعد أن بشر المذكور في اقطار الهند وعمَّد الالوف المؤلفة من الوثنيين في عدَّة ممالك وطاف في جهات اليابان وصبغ بعض ملوكها بياه المعموديَّة تحقَّق انَّ اهل اليابان يدرجون مدارج الصين فان امكنهُ ان يقنع الصينيين بصحة دين المسيح سهل عليهِ نشر النصرانيَّة في جزائر اليابان فسعى لدى ملك البرتغال ليرسلهُ بصفة سفير الى ملك الصين ولولا عوائق اعترضتهُ في طريقهِ لو تصرَّف احد عمَّال البرتغاليين لكان حصل على مرغوبهِ وشيكاً ومع هذا لم يكفَّ عن عزمهِ بل ركب تلك البحار وتجشَّم الاخطار حتى وصل الى جزيرة سانسيان بازاء سواحل الصين فمات هناك كموسى الكليم امام ارض الميعاد مقدِّماً لله اتعابهُ ليقوم بعض اخوتهِ الرهبان فينجزوا ما باشر هو بهِ وحال موتهُ دون اتمامهِ (٢ ك ١ سنة ١٥٥٢)

*

فكان دعاء فرنسيس كسهم رشق السماء. فحنن قلب الله على تلك الامم المتكمة في ظلمة الشرك. وسمعهُ اخوتهُ اليسوعيون فاخذوا يسعون في اقتفاء آثار راند قومهم وطليعة جيشهم. فبعد وفاتهِ بثلاث سنوات اراد الاب ملكيور بارتو (Barreto) رئيس الرسالة الهندية في سفرهِ الى اليابان ان يمرَّ على الصين فرصل الى جزيرة سنسيان فاتخذهُ عمّال الصين والبرتغاليون كوسيط بينهم لمبادلة أسرى الدولتين فحظي بذلك عند الصينيين حتى سمحوا لهُ بان يذهب الى كانتون مقام احد نوّاب الملك ويسكن فيها نحو شهر فعُدَّت هذه الرخصة كنحة لا سابق لها. بل نال ذلك دفعتين أخريين في السنين التالية لهُ ولبعض التجار البرتغاليين حتى جرت مذ ذاك الحين كعادة ان يقضي اولئك التجار شهرًا من السنة في كانتون. فكتب الاب بارتو الى اوربة مخبرًا بهذا الامر واردف كتابهُ بوصف ما لحظهُ من عادات الصينيين واحوالهم في دينهم ودنياهم

فكان لهذا النبأ احسن موقع في قلوب الاوربيين اجمالًا فعقدوا الآمال بقرب انفتاح ابواب الصين لمعاملات الغربيين. وزاد املهم قوّةً بما أُتيح لاهل البرتغال في ذلك الوقت ان يوسّعوا في ماكاو نطاق اعمالهم فأُعطوا ارضًا واسعة سمحوا لهم ان يتّخذوها كمستعمرة يسكنونها ويقضون فيها كل اعمالهم التجارية ولكن أُقيم في وجههم سدّ لم يسمحوا لهم بمجاوزتهِ جعلوا فيهِ بابًا واقاموا عليهِ حجّابًا لئلا يختلط اهل الصين بالاجانب فما لبثت هذه المستعمرة ان نمت وازهرت وكثر فيها التجار البرتغاليون وابتنى فيها المرسلون ديرًا خدمةً لمراطنيهم ورجاء بقرب الدخول في انحاء الصين بل تجوّل بعضهم في ولاياتها سرًّا الّا انَّ انتظارهم لم ينل مفعولهُ التامّ الّا بعد ربع القرن

وفي السنة ١٥٧٤ تولّى رئاسة المرسلين اليسوعيين في الهند واليابان رجل مقدام كان اصلهُ من اسرة شريفة في ايطالية يُدعى اسكندر ڤالنيانو (Alex. Valigna-no) فهذا ابحر الى الهند مع اربعين مرسلًا وزّع قسمًا منهم في انحاء الهند للتبشير واخذ القسم الآخر الى اليابان. فلمّا أرست سفينتهم في ماكاو منتظرةً لموسم الرياح الموافقة للسفر اخذ الرئيس الجديد يبحث عن الوسائل للولوج في الصين وانارة اهلها بضياء الايمان فاستحرَّ بالصلاة واستشفع بأدعية رسول اليابان ولزم انواع التقشفات ليفوز بالغاية المبتغاة. فكأنَّ الله اوحى اليهِ بقرب تحقيق امانيهِ فوكل الى احد ابناء وطنهِ الاب ميشال روجياري (Ruggieri) بأنْ يُوطّن نفسهُ على لغة الصين واخلاقها ليدخل

قريباً ان شاء الله في قلب الصين . وكان لهذه الغاية ارسل سابقاً الى ايطالية يستدعي منها احد تلامذته الذي كان اخذ عنهُ العلوم وطاب على يدهِ التوغُّب في الرهبانيَّة اليسوعيَّة نريد بهِ الاب ماتيو رتشي ليشركهُ في العمل مع الاب روجياري فيكونا على أهبة للدخول في مملكة السماء . فما بلغ هذا الامر مسامع رتشي حتى طار لهُ فرحاً واسرع فودَّع الاوطان والاحباب لينال حظَّهُ من اتعاب المرسلين وينفتح للمسيح ممالك جديدة

والحقُّ يقال انَّ الطبيعة والنعمة كانتا زيَّنتا هذا الرجل نفساً وجسداً بالسجايا الفريدة والصفات النادرة التي تؤهل مثلهُ الى كبائر الامور . كان المذكور وُلد في مدينة ماشراتا من اعمال المملكة البابويَّة في ٦ تشرين الثاني من السنة ١٥٥٢ من والدين شريفين لم تزل سلالتهما معروفة في وطنها حتى يومنا الحاضر . وبعد ان درس في مدارس الآباء اليسوعيين ونال فيها قصب السبق على اقرانهِ طلب الانضمام الى الرهبانيَّة اليسوعيَّة سنة ١٥٧١ فاحرز فيها الفضائل الرهبانيَّة ودرس في رومية على مشاهير عصرهِ العلوم الدينيَّة والدنيويَّة وبرَّز خصوصاً في درس العلوم الفلكيَّة والهندسة والرياضيَّات فاخذ عن علَّامة زمانهِ الاب كرستوف كلافيوس (Chr. Clavius) احد مصلحي الكلندار الغريغوريّ فسافر الاب رتشي من لشبونة عاصمة البرتغال في ٢٤ آذار سنة ١٥٧٨ ووصل الى الهند بعد اشهُر فاتمَّ في مدينة غوا دروسهُ وسيم كاهناً وعلَّم العلوم البيانيَّة في مدرستها حتى لاح الامل للاب ڤاليناتو بقرب فتوح الصين للمرسلين فطلبهُ الى ماكاو حيث وصل في ٧ آب سنة ١٥٨٢ فاجتمع بالاب روجياري وانكبَّ معهُ على درس اللغة الصينيَّة التي تُعدّ من اصعب لغات المعمور

وصل رتشي الى ماكاو فكان وصولهُ كمطلع عصر جديد وازَّل ما تبيَّنهُ من احوال الصينيين ميلهم الى المعارف واعتبارهم للعلوم فاراد ان يتخذ العلوم كوسيلة لنقض الحواجز التي تفصلهم عن التمدُّن الغربيّ . وجعل لذلك يدرس بكل نشاط اللغة الصينيَّة ولم يكتفِ باللغة العاميَّة الدارجة عند الشعب كما صنع اخوتهُ بل شرع يدرس اللغة الفصحى واستجلب كتب قدماء الكتبة وحكماء الصين فتبحَّر فيها واقتبس من انوارها . ثم ارسل وطلب من اخوتهِ في الهند وايطاليا كتب العلماء في كل فنّ مع الآلات الفلكيَّة التي كان ارباب الصنائع والمتجرون وضعوها موضعاً لدرس الافلاك

والمظاهر الجوية واقاليم البلاد والغاية من ذلك ان يستعطف خواطر اعيان الصين ويقنعهم بتقدم اهل الغرب عليهم في العلوم

وزاده رسوخاً في رأيه ما حدث للاب روجياري في تلك الاثناء فانه كان رافق التجار البرتغاليين الى كانتون. وهو هناك اذ اتى اليها من الفيليبين الاسبانية وفد من قبل نائب الملك ليعقد بين تلك الجزائر واهل الصين معاهدات تجارية تنفع البلادين وكان يرأس الوفد احد الاباء اليسوعيين المسمى سانشز (Sanchez) فوصل الوفد الى كانتون وصار له استقبال رسمي عظيم أثر في كل الناظرين. وكان الاب سانشز اتى بألطاف ثمينة في جملتها ساعة دقاقة وآلات جميلة لم يعرفها اهل الصين فقبلوها شاكرين واكرموا مثوى صاحبها. ثم سمحوا له وللاب روجياري الذي اتخذه رفيقه وترجمانه ان يشيدا هناك معبداً موقتاً ليتما فيه فرائض دينهما. فاقام الابوان هيكلاً جميلاً وزيناه بالصور البديعة والنقوش الحسنة الآخذة بابصار الناظرين فكان الصينيون اذا دخلوا منزلهما ينظرون ذلك المشهد فيتعجبون منه حتى ان الوالي نفسه سمع به وجاء ليزوره واستحسنه. ولما حان وقت رجوع الاب سانشز الى الفيليبين وانتهى الشهر الممنوح لاقامة تجار البرتغاليين في كانتون سمح الوالي للاب روجياري ان يقيم في حاضرتهم وان شاء ان يذهب الى مدينة تشاوكنغ وفيها مقام الوالي والعُمّال فيسكنها

فكانت هذه الرخصة ابهج بشرى للرسلين اثلجت صدورهم فرحاً فشكروا عليها الله كعنصة سابقة ثم اسرع الاب روجاري ودعا من ماكار الاب رتشي ومرسلين آخرين فسكنوا بيتاً استأجروه في تشاوكنغ واقاموا هناك يقسمون وقتهم بين الصلاة ودرس الكتب الصينية

فما لبث الخبر ان انتشر في المدينة فشرع الصينيون لاسيما الوجهاء والاعيان يتزاحمون في بيت المرسلين فيستقبلهم الآباء بكل لطف ويقضون الساعات الطوال في مؤانستهم والجواب على اسئلتهم العديدة عن الغرب واحواله وآدابه فكان الآباء لا يملّون عن مباحثتهم في جميع الفنون بكل رزانة وكل حكمة حتى عظم الغرب في اعينهم وكانوا قبلاً يعدّونه كمهد الجهل ويحسبون اهله كهمج وبرابرة

على ان الاب روجياري وهو الرئيس كانت تضطره خدمة الرسالة ان يتغيب عن تشاوكنغ فطلب من الاب فاليانو ان يعهد بالرئاسة الى الاب رتشي وبعد قليل

عاد الى اوربة ليوقف الحبر الاعظم سكستوس الخامس على نجاح رسالة الصين ويمدّ لها مرسلين جدداً يخدمونها ثم يعود بصفة سفير ناقلاً الى امبراطور الصين هدايا ثمينة من قبل البابا فيستعطفهُ بذلك وينال الحظوى منهُ للمرسلين

فضبط الاب رتشي زمام التدبير بكلّ حزم وضاعف همّتهُ لاستمالة الصينيين وعلى الاخص كبارهم ورؤسائهم . واذ رأى ان اللباس الاوربيّ مدعاة الى نفورهم منهُ ومن اخوتهِ استبدلهُ بزيّ علماء الصين فأرخوا لحاهم وأرسلوا شعورهم ولبسوا الطيالسة المنقوشة بتصاوير الأُسد وتسمّوا باسماء صينيّة وغير ذلك مما اكسبهم ثقة الاهلين

وعرض رتشي في احد معاهد الدار الآلات الفلكيّة والخوارط والساعات التي كان اتى بها من اوربة ونظمها على شكل متحف علمي فتقاطر الصينيّون الى رؤيتها وفي مقدّمتهم والي معاملة كانتون وحاكم المدينة فكانوا كلهم يقضون العجب من هذه الطُرَف التي لم ينظروها قطّ بل لم يسمعوا بذكرها

ولمّا استلفت نظر الوطنيين خصوصاً خارطة الكرة الارضيّة وقطار العالم فكانوا يرون صورة المعمور على هيئة جديدة لم تخطر على بالهم فسألوا الاب رتشي ان يشرحها لهم فكان يعدّد لهم قارات الارض واقسامها ودولها وممالكها ويقرأ اسماءها المكتوبة عليها فيتحقّق الصينيّون انّ بلادهم ليست سوى قسم صغير من العالم المعمور وكانوا سابقاً يعتبرونها كاربعة اخماس الدنيا ليس سواها الّا بحار واسعة في وسطها بعض الجزائر التي لا يبلغ مجموعها قدر ولاية واحدة من ولايات الصين فيحملهم نظر بلادهم على العُجب والكبرياء مع استحقار بقيّة الامم

فلمّا وقف زوّارُ المرسلين على اوهامهم الباطلة استزادوا الاب رتشي وطلب اليهِ الوالي ان يرسم لهُ خارطة الدنيا ويكتب فيها اسماء البلاد بالصينيّة ففعل وصوّر لهم خارطة كبيرة اتقنها كل الاتقان وضبط اطوالها واعراضها ومناطقها وبحورها وجزائرها وقاراتها واقاليمها مع اسامي كل الاقطار والبحور . فلمّا اتمّها اهداها الى الوالي الذي امر الطبّاعين ان يحفروها على الخشب على نفقتهِ ثم يطبعونها ففعلوا وبعد نجازها اخذ الوالي كل النسخ وارسلها الى كبار علماء الصين والى اصدقائهِ واعيان الدولة فكان ذلك داعياً لشهرة الاب رتشي بين اهل البلاد واعتبار الصينيين لعلمهِ ولمعارف اهل الغرب . واستفاد منها الصينيون امرًا آخر وهو بُعد البلاد الغربيّة عن بلادهم فاطمأنّوا بذلك

ولم يعودوا يخافون غارات الاجانب فتساهاوا معهم

وعاد الاب رتشي وحسّن خارطتهُ وزادها اتقاناً فطُبعت بعد ذلك طبعات متعدّدة انتشرت في كل اطراف الصين. ثم اخذ باصطناع كُرين من الشَّبَه والحديد رسم عليها بالوان هيئة الارض وكان الصينيون يحسبون ارضنا منبسطة غير كرويّة فاصلح بذلك غلطهم وصوّر لهم كرين غيرها رسم عليهما صُوَر الكواكب والسيارات وشرح لهم حركات الافلاك. وصنع لهم عدّة ساعات شمسيّة اهداها الى رؤسائهم فعرضوها في بيوتهم كأثمن الأعلاق وانفسها فشاع اسم الاب رتشي ايّ شيوع فاتاهُ علماء الصين ليتباحثوا معهُ في العلوم الفلكيّة فكانوا يندهشون لسعة معارفهِ ويتبيّنون قصورهم عن ادراك شأو الغربيين

ومما زاد في قلوب الصينيين اعتبار مرسل الغرب ورقتهِ الكتب الاوربيّة التي كان عرضها في متحفهِ وكان كثير منها مُحكم الطبع بهي المنظر جميل التصوير حسن التجليد وكانوا يظنون قبلًا ان بلادهم تفرّدت بالطباعة اذ كانوا منذ اجيال عديدة يطبعون بالحفر على الخشب فسبقوا الاوربيين في هذا الفنّ لكنهم كانوا يجهلون فنّ الطبع على الحروف الرصاصيّة فتعجّبوا من ترقّي الطباعة الاوربيّة

وكان الاب رتشي لا يكتفي بان يفيد الصينيين بل اراد ان يجدي مواطنيهِ علماً يستفيدهُ منهم. واوّل شيء اصلحهُ من اوهام الاوربيين ظنّهم الباطل بانّ الصين والخطا (Cataï) صقعان مختلفان تفصل بينهما البحار. وكان اسم الخطا تغلّب على الصين منذ تملّك سلالة المغول عليها فكان اهل الاسفار اذا ذكروا الصين لم يذكروها بغير اسم الخطا كماركو باولو وغيره. فتحقق الاب رتشي ان الخطا هي نفس الصين وانما يطلق هذا الاسم خصوصاً على شمالها وانّ ما ذكرهُ اصحاب الرحل عن تلك يصحّ في هذه تماماً وانّ عاصمة الصين المعروفة في تواريخ السائرين باسم خان بالق هي مدينة پاكين بعينها وان بلاد الصين متاخمة لمفاوزات التتر وصحاري المغول

ومما ازال كلّ وهم في ذلك ان الاب ايرونيم كساڤيه (Jérôme Xavier) اليسوعي الذي كان يبشّر بالايمان في بلاد المغول ويتردّد على ملكهم « السلطان اكبر » رأى في بلاطهِ رحالةً مسلماً كان أتى مع قفل من پاكين المدعوّة خان بالق وانّ خان بالق هي عاصمة الصين فاراد رؤساء الرهبانيّة اليسوعيّة ان يقفوا على صحّة الخبر فارسلوا

من الهنـد احد رهبانهم الاخ بدي گويز (Benoît de Goes) مع تجـار كانوا يسافرون الى الصين كل خمس سنوات فرافقهم الاخ دي گويز وقاسى من الاتعاب ما لا يصف به قام وقطع بصفة درويش وعابد بلاد تابول وكشغار وجهات المغول حتى بلغ سدّ الصين وجاور مدينة پاكين وكاتب اليسوعيين الذين كانوا في تلك الجهات لكنهُ مات قبل اجتماعه بهم. فلم يبقَ بعد ذلك ادنى شكّ في انّ الخطا هيَ القسم الشمالي من بلاد الصين

وكذلك اصلح الاب رتشي اغلاطاً كثيرة كانت وقعت في الخوارط المرسومة في اوربّة كتعريف تخوم الصين وامتدادها بحرًا وبرًّا فجعل علماء الجغرافيـة ينقلون عن معلومات المرسل ويسندون اليه اصلاحاتهم

فهذه الخدم وغيرها ادّاها الاب رتشي للعلوم القريبة اضرمت في قلوب كثيرين من اخوته الرغبة في الاجتماع به ومقاسمة اتعابه. لكنّ تلك المساعي الطيبة كادت غير مرّة ان تذهب سدًى وتخيب آمال المرسلين لانّ ولاة الصين ما كانوا يحكمون الّا ثلاث سنوات ثم يغيّرهم الامبراطور و ينقلهم الى وظائف أخرى . فلما تغيّر الوالي الذي كان سمح للآباء بفتح دار لهم في تشاوكنغ اضطرّوا الى ان يعودوا الى ماكاو . بيـد ان الوالي الجديد اذن لهم بعد قليل بالرجوع الى دارهم . وكذا جرى لهم مرّة او مرّتين بعد ذلك حتّى ان بعض خدمة الاصنام تمكّن مرّة من طردهم بالقوّة من المدينـة فكانت حالتهم تلك الحرجة لا تكفل لهم بالغد . فاستدراكاً لتلك الاخطار كانوا لا يزالون يطلبون التقرّب الى پاكين عاصمة الدولة لعلّهم يفوزون الى قصر الملك فينالون منهُ الرخصـة باستيطان الصين بطمأنينـة فكر . الّا ان عمّال الدولة كانوا يتكرون عليهم الذهاب الى دار الملك خوفًا من سطوة السلطان ولماسهم بان احكام الدولة لا تسمح بدخول الاجـانب في كرسي الملك

فكان اليسوعيون على ما طُبعوا عليه من الجلد والثبـات لا يقطعون الرجاء عن الوصول الى حاضرة الدولة . ولاسيما انّ كثيرين من كبار المملكة اذ عرفوا فضلهـم وتحققوا انهم لا يطلبون غير خدمة العلم والدين كانوا يوسعون كلّ يوم دائرة تودّدهم حتّى سمحوا لهم ان يسكنوا في مدينتي تشاوتشير وناكين ففتحوا لهم في كاتيهما دارًا . وكان الاب رتشي استدعى اليه من ماكاو شابّين مسيحيين اصلهما من عائلتين صينيّتين

تنصّرتا هناك وطلبا الدخول في الرهبانيّة اليسوعيّة فاجاب الاب رتشي الى طلبتهما وثقفهما في الفضائل الرهبانيّة ثم استعان بهما لاعمال الرسالة فادّيا لهُ خدماً عديدة وساعداهُ على الاخصّ في التقرّب من اهل وطنهما عند سعيهِ بالدخول الى پاكين

والحقّ يقال انّ رتشي كان يُعدّ كل ما صنع سابقًا كلا شيء ريثما يستطيع الوصول الى قلب الصين ويتقرّب من سلطانهِ الاعظم. فلادراك هذه الغاية كان يصعد عندهُ افخر الهدايا ليقدّمها للملك ويبالغ في الادعية واعمال البرّ ليسهّل لهُ الرب طريقهُ اليهِ. واذ رأى انّ اعيان الدولة الذين اكتسب ودادهم قاصرون عن مساعدتهِ جعل على الله اتّكالهُ وسافر في حزيران سنة ١٥٩٨ الى پاكين مع احد الآباء والاخوين الصينيّين فوصل الى پاكين في ٧ ايلول بعد سفر طويل واقام في العاصمة نحو شهرين لكنّهُ لم يستطع الفوز بمرغوبهِ ولم يجد احدًا يبلّغهُ الى ابن ملك السماء او يخبرهُ بمجيئهِ فعاد الى نانكين بخفّي حنين

لكنّ رجل الله لم يستسلم الى القنوط والجزع بل واصل اشغالهُ وصلواتهِ مع اخوتهِ الى حين تأتي الساعة المعيّنة من الله الذي في يديهِ قلوب الملوك كما يقول الكتاب (امثال ٢١: ١). فاعمالهُ الصالحة كانت تستعطف اليهِ الخواطر حتى انّ الصينيين دعوهُ باسم «تشنغ يان» اي القديس وهو اسمٌ يخصّون بهِ كبار رجالهم فقط مثل كنفوشيوس مشترعهم وبعض الفلاسفة العظام

وكان رتشي لا يزال يترقّب الفرصة ليعود الى دار السلطنة ففي اواسط ايار من السنة ١٦٠٠ استأنف المسير الى پاكين مع الاب دياگو پنتويا (Diego Pantoja) والاخوين الصينيين فطال بهم السفر ووجدوا في طريقهم من العوائق ما لم يكن في الحسبان وتعرّض لهم بعض العمّال ذوي الجشع والقحة فسلبهم قسماً من الالطاف المعدّة للملك وحاول قتل الاب رتشي وحبسهُ مدّةً لكنّ العناية الصمدانيّة نجّتهُ من كل الاخطار فبلغ پاكين سالمًا بعد سبعة اشهر

وكان الجالس آنئذٍ على سُدّة الملك رجلًا يُدعى تشان سونغ ويلقب «فان لي» كان يتولّى الامر منذ سنة ١٥٧٣ وكان رجلًا عادلًا محبًّا المعارف فاطلعهُ اهل بلاطهِ على خبر رتشي واعلمهُ بقدومهِ وبما اعدّهُ للملك من الهدايا فارسل ودعاه الى قصرهِ. فلبس المرسل ثوب الاساتذة الرسميّ وجعل الهدايا في ايدي الاخوين وبعض الخدم وحضر

امام الملك بعد ان قدَّم لهُ فرائض الاكرام كما هي العادة عند اهل البلاد. فرحَّب الملك بالقادم تجاه اهل بلاطهِ وألقى عليهِ عدَّة سؤالات عن بلاد الغرب اعجبتهُ وادهشتهُ معاً. ثمَّ اخذ الالطاف فرداً فرداً واستخبر عن معانيها وفوائدها. وكان في جملتها ساعة لم يُرَ مثلها في الصين ثمَّ نظَّارة جميلة ومجموع يهي فيهِ تصاوير آثار الغرب وابنيتهِ الفخيمة من قصور وكنائس ورسوم دقيقة ومناظر بهيَّة وتصاوير بديعة. واعجبتهُ خصوصاً خارطة العالم التي كان رتشي حشَّاها كثيراً. وكذلك اهدى الملك آلةً موسيقيَّة كانت تُسمع الحضور الحاناً اوربيَّة رخيمة فاستعظمها الملك واراد ان يُركِّب على نغماتها ادوار صينيَّة فألَّف لهُ الاب رتشي اغانيَّ عديدة ضمَّنها الحكم الادبيَّة فوقع ذلك من قلبهِ احسن موقع واظهر للوافد سموّ رضاه

ثم ارسل الملك سرّاً احد كبار دولتهِ واعلم رتشي ورفقتهُ بانهُ يريد ان يقيموا في پاكين ولا يضطربوا من معاكسة بعض العمَّال لهم. وكان بعض حاشية الملك خافوا من اقامة الاجانب بينهم وعرضوا عليهِ بان يصرف المرسلين لئلَّا يستوطن اهل الغرب مملكة الصين وتبطل سُنَّة اجدادهِ الآمرين بنفي الغرباء من تخوم الدولة. فالملك سمع كلامهم ولم يُعِرهُ بالًا لكنَّهُ لم يمنح للاب رتشي منشوراً رسميًّا للسكنى في پاكين كما كان يتمنَّى. وعلى كل حال رأى الآباء في تلك الرخصة الشفاهيَّة «اعجوبةً عظيمة اصطنعتها يمين العلي» وكان ذلك في اواخر كانون الثاني من السنة ١٦٠١

ما بلغ هذا الخبر مسامع الحبر الاعظم ورؤساء الرهبانيَّة اليسوعيَّة حتى طربت لهُ الافئدة وقدَّموا لله في كل انحاء اوربة الشكر الجسيم على هذه المنَّة لما كان يُبنى عليها من الآمال لترقي العلوم فضلاً عن انتشار الدين القويم

اما رتشي ورفقتهُ فانهم اسرعوا الى اقتناء دار رحبة موافقة لغايتهم من الاختلاط باهل پاكين وموانستهم والتباحث في العلوم معهم فنظَّموها احسن نظام وجعلوا فيها ما من شأنهِ ان يعظِّم التمدُّن الغربي في اعين الصينيين. وكان الملك يحبُّ الاجتماع برتشي وعيَّن لهُ اربعة مواسم رسميَّة كان يقبلهُ فيها مع عمدة اهل مملكتهِ في ساحة مخصَّصة بهم. وكان ايضاً يستدعيهِ سرّاً ليستطلع رأيهُ في احوال الغرب وعلومهِ ووكل اليهِ باصطناع خارطة جديدة للعالم ابهى وابدع من الخوارط السابقة ليزين بها بلاطهُ ففضى رتشي في عملها عدَّة اشهر فاستحسنها تشان سونغ للغاية وانعم عليهِ بانعامات شتى احرزت

لهُ سمعةٌ طيبة بين كل رعايا الدولة فاخذوا يتواردون الى دار المرسلين زرافات ووحداناً. وكان رتشي يقضي قسماً كبيرًا من نهارهِ وليلهِ مع علماء العاصمة وافاضلها ويفتش لهُ معنى الآلات التي في دارهِ وينتد آراء الصينيين في صورة العالم واقاليمهِ وتركيبهِ. ومما ابطلهُ من اوهامهم قولهم بانَّ العالم يتركب من خمسة عناصر اي الماء والارض والنار والخشب والمعدن. وكذلك بيَّن لهم انَّ الارض ليست مربَّعة الشكل منبسطة وانَّ الصين ليست مركز العالم كما كانوا يزعمون واشياء كثيرة غيرها علموا منها تقدُّم الغربيين عليهم

ومن العلوم التي كان الصينيون مولعين بها الهيئة والفلك لانَّ معارفهم كانت في الغالب محمولة على النظريات او على تقاليد قديمة اكل عليها الدهر وشرب. ووافق وجود الاب رتشي في پاكين وقوع كسوف لاقمر فما امكن الفلكيين الصينيين ان يسبقوا بتعريف زمانهِ وعللهِ الَّا ان رتشي عمل كل الحسابات وعرضها على الملك سلفاً فحدث الخسوف في وقتهِ كما افاد وعلَّلهُ بتوسُّط الارض بين الشمس والقمر. فاقرَّ لهُ الجميع بسعة العلم واتَّخذوهُ منذ ذاك الحين كحكم في كل مشاكلهم يذعنون الى قولهِ كما يذعن المتعلِّم لاستاذهِ

قضى رتشي نحو عشر سنوات في پاكين مكرَّماً موقَّرًا من الجميع. ومع كثرة اشغالهِ صنَّف في الصينية عدَّة تآليف علميَّة طلبها منهُ الملك او عمَّال الدولة وعلماؤها طُبع قسمٌ منها في الصين على الحجر وبقي قسمٌ آخر مخطوطاً حتى الان فما طُبع كتاب مطوَّل في الحساب ثمَّ ترجمة صينيَّة لستَّة كتب من هندسة اقليدس وكتاب في الهندسة المنبسطة وكتاب في وصف السماء والارض وكتاب في الاقيسة وكتاب شرح الكرة السماويَّة وكتاب آخر في الشعر الصيني عن النجوم وكتاب في حساب مساحة المثلثات وكتاب في فنِّ الذاكرة وكتاب في الصداقة اتقنهُ غاية الاتقان ونظمهُ الصينيون بين اجود آثارهم الادبيَّة. هذا فضلاً عمَّا كتبهُ رتشي في اللغات الاوربيَّة عن الصين ونقل عنهُ العلماء من اليسوعيين وغيرهم

وزد عليهِ ان رتشي لم يخدم العلوم في الصين بذاتهِ فقط بل خدمها خدمةً اعظم بمخالفائهِ الذين استقدمهم من اوربة ليتهجروا طريقهُ في تعزيز المعارف فارسل رؤساء الرهبانيَّة اليسوعيَّة مدَّة ١٧٠ سنة عدداً وافرًا من علمائهم الى الصين فنشروا فيها العلوم

وعمّموا الآداب الغربيّة فصاروا وصلةً بين اقاصي الشرق والغرب . ولهم من التآليف ما يزيد على الالف . ولدينا قائمة ما طُبع في الصينيّة بهمّة الاوربيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر جمعها العلامة هنري كرديه سنة ١٩٠١ (١ وهي تحتوي وصف ٣٩٥ كتاباً في كل العلوم الدينيّة والدنيويّة منها ٣٠٠ بنيف للاباء اليسوعيين

وكان هؤلاء المرسلون يكاتبون في رومية وباريس وموسكو وفيينّة اعلمة العلم فيفيدونهم عن علوم الصين ويترجمون لهم كتبهم التاريخيّة والادبيّة حتّى اغنوا بتآليفهم مكاتب اوربّة . ولما كنا نشتغل في باريس سنة ١٨٩٢ في المكتبة العموميّة كان ناظرها المسيو زوتنبرج (H. Zotenberg) يرينا عدداً عديداً من المخطوطات التي تُحفظ في خزانة الكتب مما ألّفهُ اليسوعيون في الصين فيستقي من مواردها العلماء حتى يومنا هذا . وكان يردّد علينا قولهُ : « لولا اليسوعيون لبقيت الصين مجهولةً حتى القرن التاسع عشر »

ولما استأنف اليسوعيون رسالتهم الى الصين نحو السنة ١٨٤٠ تذكروا اسلافهم وطرقوا مثلهم باب العلوم فألّفوا التآليف وأنشأوا مطبعتهم الكبيرة في شانغاي التي طبعت نحو مائتي كتاب مما يقرُّ لهُ الصينيون وعلماء الغرب بالتقدّم على سواه . ولهم مرصدان من اعظم مراصد العالم احدهما فلكي والاخر جويّ ومغناطيسيّ يؤدّيان كل يوم الخدم المشكورة للسفن الماخرة مياه البحر الصينيّ . وفي كليّتنا اليوم احد مرسلي الصين الذي ألّف تآليف لغويّة في المجازات الصينيّة اثنى عليها الاختصاصيون وتكرّر طبعها (اطلب المشرق ١٢ : ٣١)

والفضل في كلّ هذه الاعمال عائد خصوصاً الى الاب ريتشي الذي نهج للمرسلين طريقة المعارف واستحقّ ان يُدعى رائد العلم في الصين

وقد عرف لهُ فضلهُ ملك الصين لما مات في ١١ ايار سنة ١٦١٠ فارسل من ينوب عنهُ لدى رفقته بتقدمة فروض التعازي ووهب للآباء اليسوعيين بملكيّ امضاءُ بيده ارضاً واسعةً خصّها لمدافن المرسلين . وهي اليوم مقبرة الرسالة الكاثوليكيّة في

---

١) وهذا اسم الكتاب Bibliographie des ouvrages publiés en Chine par les Européens au XVII^e^ et au XVIII^e^ siècles par Henri Cordier. *Paris, Imprimerie Nationale*, 1901, p. 75

باكين . فهذه النعمة الفريدة منحها الملك لاكرام الاب رتشي ويعدُّها اهل الصين كاعظم الانعامات . وكان المنشور الملكي في ذلك كمعرفة رسميَّة لحلول الاجانب في المملكة . لما بثَّه وجوه الدولة وعلماء العاصمة فعدُّوا موت رتشي كمصاب وطنيّ وكتبوا في مدحه شققًا ثانيَة زانوا بها مدفنهُ (التتمَّة لمدد آخر)

الابوان السماوي والارضي

ارسل لنا الشاعران المجيدان حضرة الاب رافائيل البستاني وجناب الاديب احمد تقي الدين القصيدتين التاليتين البليغتي المعاني السامي الابيات وقد وجدنا بينهما علاقة فجمعناهما تحت العنوان السابق . فانَّ الاولى تحتوي وصفًا جميلًا لاعمال الآب السماوي ولعجائبهِ العديدة في خلائقهِ . اما الثانية فتتطق عن عواطف الاب الارضي نحو ابنهِ الصغير وفرَّة عينهِ وموضوع آمالهِ . فلكليهما الشكر الجزيل

ل . ش

١

سبحان الله في خلائقه

لحضرة الخوري رافائيل البستاني بمدرسة الحكمة العامرة

أفِقْ يا قلبُ من سُكرٍ بكاسِ الجهلِ لا الخمرِ
ألا اخرُجْ من دُجى ليلٍ فقد وافى ضيا الفجرِ
انظُمْ تنظرْ الى كونٍ عجيبٍ قد سبى فكري
أدِرْ لحظًا الى العليا ، وانظرْ بهجةَ الدررِ
بوقبْ في العُلى طرًّا فكمْ من كوكبٍ دُرِّي
بأوقاتٍ وترقيمٍ وتنظيمٍ بها يسري
تأملْ قبةَ زرقا زهتْ بالأنجمِ الزُهرِ
سماءٌ أدهشتْ عقلي فهل في الجوِّ من سحرِ
أجيبي سائلًا يا شمسُ بل يُوحي بهذا السرِّ
فمَنْ قد زانَ افلاكًا وأعلاهـا مُذُ الدهرِ
ومَنْ ساقتْ يداهُ الغيـ م مِن قُطرٍ الى قُطرِ
ومَنْ أعلى جبالًا قد كساها الفيثُ بالزهرِ